تداعيات سنايك المطر في شعر الدكتور عبد الكريم راضي جعفر

صدام فهد الاسدي

حديث المطر ليس جديدا على الشعر، وكان عند القدامى يأتي مع الفعل (عفا) ملازمة صاخبة
أظهرت الطبيعة مجسدة بجمال وسحر اخاذين، لاسيما حين تندفع رشات المطر فوق ربع
الاحبة، وقد كان باشكاله واسمانه (ملثا، صيتا، رعدا، غيثا، وسميا، هطالا) وحين ارادوا بالمطر تصفية
الاثر ونحت الاطلال كان دلالة للشر وحين ارادوا الزرع والخير والخصب ارادوا دلالة الخير، وقد
استخدم شعراء العصر الحديث لغة خاصة بالمطر حتى عرف السياب شاعر البصرة الكبير (شاعر
المطر)، ووجد من الشعراء الذين احتفلوا كثيرا بالمطر الشاعر البصري الدكتور عبد الكريم راضي
جعفر ضمن تداعيات ومراحل متنوعة فقد حمل الدفء البارد في مطلع السبعينيات سرا للمطر
متمثلا بالحنين والامل وانتظار اللارض العطشى للماء ضمن عناصر متجمعة في مسببات
المطر (السحب، الرعد، البرق) ومن ضمنها الامطار، انظر قول الشاعر:

اخاف من سيل الجبال

عين افعى تقطر

سما وريح تقطر

اخاف من همس القطر

لماذا يخاف الشاعر من الهمس؟ وحين يصف دفاء غربته الدافئة الباردة بتشبع امدادات المطر
بالق خاص يربط روحه المحلقة بمشاعره ودفقاته، انظر قوله:

لذيذا كحبي لدفاء الشتاء

كشرب السكون لهاث المطر

ومن هذه الاستعارة الرائعة ياخذك الشاعر من الهمس الى السكون مرحلة اقل كي يلقى في حضن

البحث عن امل قء ادم قانلا:

لم تخفق في قلبي نشوة

أي الامطار سترويك

حتى لو جمعت السحبا

ان الشاعر لا يشعرنا بالياس ولكنه يحلق معنا الى فضاء الانتظار وهنا يتوسل بالجنس الجمعي

(الامطار) دون انفراد ليحمل مسؤولية العقم رمزا مستنفدا للدلالة بوسيلة الضياع والبحث عن

ابتسامة صادقة لامنفعة، وكانى اراه يمتطي اعواد سعف النخيل ليحسبها خيولا تحملنا الى جزر

بعيدة نائية جدا عن افق العوز والحرمان واره كذلك يتحمل وحيدا سحق الخيول السريعة التي

سماها (سنايك المطر) متوجعا باوجاع وطنه وحرقات ضياع امته، وللسياب وجع خاص في اعماق

الشاعر رائيا المطر الذي هشم رفاته على طريق سفوان كان قاتلا اخر يضاف الى لائحة قتلة

السياب غير المطر، انظر قوله:

تدوسني سنايك المطر

تؤلمني

تغرز في عروقي اللهب

توقد الضجر

تدوس فوق صدري الكسير

انها سنايك المطر

تؤلمني وتوحل الحفر

ولا ارد تلك الرموز الى منحى تعبيرى مصطنع يريد به الطبيعة واصفا وهو ابن بيئة معروفة

بالجمال والمطر واره محقا طالبا التغيير والتبديل والثورة بلغة شعرية موحية قانلا:

اظل ابكي فوق صدري الحزين

نبكي معا

يرشني انهمار

من مقلتين ذابتا في مطر غزير

ولعل ما يخفف وطأة الحزن مشاركته الاخر في قوله (نبكي معا) والذي يدهشنا في شعر الدكتور ان
عالمه عالما وخوفه خوفنا من الغد الجريح الذي تنبأ به وتساوولاته لاتبتعد عن تساوالاتنا وقضيتنا
واحدة وهي الخلاص من القحط والعبور الى مرافيء الحرية ، وهذا الشعر يجمع دموعنا ويرسم
ابتسامتنا لوحة على شفاه الطيور، وحسبنا ندرك ان تلك الوسيلة المطرية لغة تعبيرية سقت
قصائده عمقا وغنا كفته عن الرتابة والصنعة داخله في جسد القصائد الى لغة همس دافئة وسكون
صارخ، وان دل كل هذا التعبير المؤثر فانه يزكي الشاعر من لغة التهافت التي اسرت الكثير من
الشعراء بالنظم السطحي وكان اختار المطر بديلا شاملا عن الطبيعة الكل، وغالبا ما يجمع الشاعر
بين الاصل واثره (السحابة والمطر) وهذا تسامي منطقي لا بد منه في ترتيب سياق فكري انظر
قوله:

صحابي يا احبابي

سلوا الليلا، سلوا السحبا

سلوا المطرا

متى صلت اغان عند جفنيه

وهكذا كانت قدحات الشاعر السبعينية مبشرة بدلائل المطر الذي نثته السحابة خيرا في ارتفاعات
الشفق الجنوبي بعد ١٧ عاما قال الشاعر مخاطبا نخلة الجنوب:

وطريق صباك الي قريب

وانا هذي الليلة اوقدت دمي مطرا

يرتاح عليه هواي

هنا تتضح مغاليق نفسه الكابطة لحزنها وزفرات نفسه الجياشة للامل وهو يبحث عن ليلة فرح
يدفع لها دمه قربانا واية فضيلة يحملها الشاعر حين يشعل دمه للنار حطبا؟؟ وحين يخرج من دائرة
الذات مخاطبا الفتیان الذين يراهم الامل القادم قانلا:

ياطالعون من جذور خير امة

اخرجها الله الى البشر

ياما نحي الارض النبوية

الحقول والمطر

وحسبي بهذا المفتاح الذهبي الذي يجذر فيه الشاعر دلالات انتمائه العربي حاملا الامل الذي ينتصر
بالرغم من القلة ، وحين يخرج من عالم الماديات الى المعنويات يتكفي ايضا على المطر ويردد
اغنية شجيرة انظر قوله:

مطر يتدافع نحو الارض

فالتم على بعضي

اتكفي على صوتك

اتكفي شجرا اعشب فيه

اتكفي مطرا اغضض طرف غناني

بهذا التراكب الايقاعي بالفعل اتكفي يظهر الشاعر كوامنه بالخفية بحركة المطر الغزير
، فيشعر بالفرحة ثم يسلم رايته للصوت العيد ليزرع عشبه في المسافات الفارغة ، وقد ينهي بابراقة
امل حين يغض الطرف لاغنية الشارة ولعل هذه الاشارات تكشف ضالة ابحت عنها في شعره
الرصين والمتماسك والذي اود زرعه في يوتوبيا الدار الوادعة بالامل ونحن لانحمل النص اكثر
من طاقته ولانؤول الافكار بعيدا فاحترق حيز بين القائل والمتلقي ولا بد من دفع يصيب الاتيين
معا لامن تلك النار الازلية التي يبت شرارتها الشعر الاصيل حقا، وكم اجد الشاعر جامعا بين
مسميات المطر (يمامة/ غمامة/ سحابة) في اقواله

ها انت تطلين يمامة وهذا رمز الى زرقاء اليمامة صاحبة البصر الثاقب البعيد وقوله

بحر من الزقزقات ونمضي سحابة
ومرني اجيء غيمة من نخيل الجنوب
لم تفتح بابه غيمة جذب
وامثال هذا الاحتضان المصدري والاسمي عند الشاعر كان الفعل نغمة صادة في مسببات الحزن
وقد استخدم الفعل يمطر في قوله
جز العاقول وشق الصيف
لم يمطر ماء
وقال في قصيدة تقليدية بثوب العمود
نستمطر الجذب ان جفت منايعنا وان تفتق جذبا فالدما ديم
اوميء الينا تجد نا غيمة هطلت في كل معركة ما شابها سقم
تسقي العدا شررا من فرط وابلها ومن بروق اللظى هولالة وسم
وكما نرى الفعل نستمطر حمل دلالة حركة نامية جاء اثرها الجذب والديم والغيم والوسمي والواابل
،وتجده الشاعر شاعرا امويا عباسيا لم يخلع ثوب الامس وتراثه ولكن بثوب عصري جديد وهو
يستخدم سقطات المطر ووشوشات الغيوم وندى الواابل ورعشات الوسمي ،ولم يغب الوصف عنده
في صور البطولة عن سنايك المطر قوله:
مثل النخيل تشامخوا فربت لهم شمس الضحى واندكت السحب
يا ايها الغيث الذي ملأ الدنيا زهرا فندى رملها الذهب
وانت تسفر مع الشاعر بساحة وصف للطبيعة الخلابة وموالات الفكر الناصع تجده مصرا بان
المطر سيسقط غدا :
ويعبر للضحى الفتيان مبتلين بالخصب
وبالزهر المحنا اوراق الشجر
فتمتد المسافات والنخيل ويهطل المطر
ولا اخال هذه التدايعات الرائعة عند الشاعر نهائية تتوقف بل اراه سيستمر في نغمته المطرية
محركا سنايك المطر نحو نشيد خاص به يميزه عنغيره من الشعراء واقول بحق اكاديمي يكتب
الشعر ويدفع روحه نحو النقد الدرس الصعب تطبيقا على المرء ان الدكتور عبد الكريم شاعر مبدع
وخلاق موهوب لم يكتب نظما بل قال شعرا فاطلب منه المعذرة ان سقطت كلماتي بين سنايك مطره
الغزير وتفتحت عن زهرة قادمة